الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

من حطّين إلى القدس

تضحيات تصنع التّاريخ

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA
LONDON - UK

AMIEF
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في سجل التّاريخ الإنسانيّ، تتلألأ لحظات تطوي الحدود الضيّقة في الفكر، وتصبح رموزاً عابرة للزمكانات، وأيقونات للهداية للأجيال المتعاقبة، ومن هذه اللحظات المضيئة، تبرز ملحمة حطّين والقدس كنموذج حضاريّ متكامل، لا يقتصر كونه مجرّد انتصار عسكري، إنّما يشكّل منهجيّة شاملة في فهم معادلة التحرّر الحقيقيّ...

فما كان من انتصار صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين عام 1187م، وما تلاه بعدها من تحرير القدس الشريف من براثن الاحتلال الصليبي الذي دام قرابة القرن، إلاّ تمثيلاً وتجسيداً حيّاً لمعنى النّهوض الحضاريّ الذي يجمع بين قوّة العزيمة ونبل الأخلاق، وبين الحكمة الإستراتيجيّة والرّحمة الإنسانيّة، فقد كان هذا النموذج التاريخي درساً خالداً يستحضر عبر الدّهور كلّما ألحّ النزف على الأمّة العملاقة، وكلّما واجهت تحدّيات جديدة، فاستحضار هذا الأمل كشمعة تضيء الدرب نحو التّحرّر والتّخلّص من نير الاحتلال وسطوة الهيمنة وطغيان جبروتها....

ففي عصرنا الراهن، تخضّبت الأرض الفلسطينيّة بدماء الشهداء الطاهرة، الذين حملوا على عاتقهم عبء القضيّة، وعايشوا فصولها جيلاً بعد جيل، فلاطمتهم أمواج الاحتلال بين التشريد والنّزوح والتقتيل والتنكيل والتجويع...

فمن رحم معاناة أرض فلسطين، يطرح نموذج حطين-القدس نفسه كمرشد فكريّ ومنهجيّ لفهم طبيعة الصراع وآليات المواجهة، لا من منطلق النّسخ الحرفيّ للتّاريخ، إنّما من منطلق استيعاب الفلسفة العامة التي قادت إلى ذلك الانتصار التاريخيّ المجيد....

فأولى ملامح تلك الفلسفة تبرز في....

مرحلة ما قبل التحرير، بكونها أولّاً تعطي للإعداد أساساً تبنى عليه النظرة العسكريّة العميقة، ويعكس ذلك الإعداد ما يحمله القادة من حكمة، فلم يكن صلاح الدين الأيوبي مجرّد قائد عسكريّ بارع وحسب، إنّما كان مهندساً سياسيّاً ومحنكاً إستراتيجيّاً فذّاً، فقد أدرك أنّ معركة التحرير تبدأ من الدّاخل قبل امتدادها إلى الخارج، فتوجّه بحكمته نحو الوحدة الداخلية ورأب صدع التشرذم، وإنهاء الصراعات الجانبيّة، قبل أنْ

يفكّر بتوجيه سيفه نحو الصّليبيّن، فقام بتوحيد مصر وبلاد الشام تحت راية واحدة، منهياً بذلك عقوداً من الانقسامات التي فتكت بوشائج الأمّة واستنزفت طاقتها وأنهكتها، فقد استمرّ في سعيه لتوحيد الأمة الإسلامية وتوطيد حكمه في الفترة من عام 1169م حتى عام 1187م، فهذه الحقيقة التاريخيّة تحمل درساً عميقاً يسقط على الواقع المعاصر، مفادها أنّ التحرير الخارجيّ يستحيل تحقّقه دون تحرّر داخليّ من آفات الانقسام والتشتّت، فالأمّة المنقسمة على نفسها، المنشغلة بصراعاتها الداخليّة، تصبح فريسة سهلة للأعداء الخارجيّين، فالوحدة ليست ضرورة سياسيّة وحسب، إنّما هي فريضة حضاريّة وشرط أساسيّ لأيّة نهضة حقيقيّة، وفي صلب السياق الفلسطينيّ المعاصر، يطرح هذا الدرس تساؤلاً جوهرياً حول أولويّات النّضال، وكيفيّة تحقيق التحرّر الخارجيّ في ظلّ استمرار الانقسام الداخليّ، وهذا يقتضي إعادة ترتيب أولويات العمل الوطنيّ، ليصبح إنهاء الانقسام مقدّمة ضروريّة لأيّة خطوة جادّة نحو التحرير...

ومن الجدير بالذّكر أنّه بعد نضال وتضحيات جسيمة امتدت لأكثر من قرن، ها نحن ذا نرى اليوم العديد من الدّول في العالم الغربيّ قد منحت الاعتراف الرسمي بدولة فلسطين، وعلى رأسها بريطانيا نفسها التي أسّست لوعد بلفور، فهذا الاعتراف منها قد يرى كنوع من التكفير عن الذنب الذي ارتكبته بحقّ الشعب الفلسطينيّ، كما أنّه يعدّ خطوة في طريق التصحيح، إلاّ أنّه يستوجب على الفلسطينيّين أنْ يتضامنوا ويتعانوا في وحدة قوية، تعمل على استثمار هذا الدعم والاعتراف العالميّ بدولتهم بصورة سليمة...

وثانياً بتوجّهها نحو بناء القوّة، والانتقال من الشعارات إلى الحقائق، فقد فهم صلاح الدين معادلة القوة بشكلها الصّحيح، ولم يكن يكتفي بالخطاب العاطفيّ أو الشّعارات الرنّانة، إنّما عمل بصبر ودأب على بناء مقوّمات القوّة الحقيقيّة التي تمثّلت باقتصاد قويّ ومنتج، وجيش نظامي مدرّب ومجهّز، وإدارة كفؤة وعادلة، والأهمّ من ذلك كلّه، شعب مؤمن بعدالة قضيّته ومستعدّ للتّضحية من أجلها، فهذه المنهجيّة في بناء القوّة تقدّم نموذجاً معاصراً لما يُسمّى باقتصاد المقاومة ومجتمع المقاومة، فالتّحرّر الحقيقيّ لا يأتي من الاعتماد على القوى الخارجيّة أو المساعدات الأجنبيّة، إنّما من البناء الذاتيّ لمقوّمات الصّمود والمواجهة، فهذا يتطلّب استثماراً طويل المدى في التّعليم والبحث العلميّ والتّطوير التكنولوجيّ، وبناء اقتصاد منتج يعتمد على الذّات أكثر من اعتماده على الخارج.....

وثالثاً تظهر في الحكمة الإستراتيجيّة، من خلال اختيار توقيت المعركة ومكانها، فلم يندفع صلاح الدين وراء العواطف أو ضغوط اللحظة، إنّما انتظر حتّى اكتملت عناصر النّصر بأكمله؛ من القوّة الذاتيّة، والفرصة المناسبة، والأرض الملائمة للمعركة، فمعركة حطّين لم تكن مجرّد صدام عسكريّ، إنّما كانت تتويجاً لإستراتيجيّة محكمة طويلة المدى، ففي عالمنا المعاصر ووقتنا الرّاهن، تتسارع وتيرة الأحداث وتتزايد ضغوط ردود الأفعال، فليس هنا أنسب من نموذج صلاح الدين لنتّخذه درساً عميقاً لتحقيق الصّبر الإستراتيجيّ والرؤية بعيدة المدى، فالنّضال الحقيقيّ يحتاج إلى أنفاس طويلة وإستراتيجيّة متدرّجة، لا مجرّد ردود أفعال عاطفيّة قد تضرّ أكثر ممّا تنفع...

ومن ثمّ هناك مرحلة ما بعد التّحرير، وتمثّلت أوّلاً فيأخلاقيّات النّصر وحكمة الإدارة، فكان أروع ما تمّ تحقيقه في ملحمة تحرير القدس الطريقة التي أدير النّصر فيها، لا النّصر بحدّ ذاته، ففي لحظات الانتصار، حين بلغت العواطف ذروتها وأصبح الانتقام مغرياً، أظهر صلاح الدّين وجهاً مشرقاً للحضارة الإسلاميّة من خلال تعامله الإنسانيّ النّبيل مع المهزومين، فكان عنواناً للتّسامح في أوج القوّة، فقد عامل سكّان المدينة بكرامة ورحمة، وسمح لهم بالمغادرة الآمنة مقابل فدية رمزيّة، وعفا عن الفقراء منهم من هذه الفدية أيضاً، فهذا السّلوك كان تعبيراً عن منهجيّة حضاريّة راسخة تؤمن بأنّ العدل والرّحمة هما أساس أيّ انتصار حقيقيّ، فالهدف من التّحرير استعادة الحقّ وإقامة العدل وحقن الدماء، لا الانتقام أو التّشفّي...

وفي السّياق المعاصر، يقدّم هذا النّموذج درساً عميقاً في أهميّة الحفاظ على البعد الأخلاقيّ في الصّراع، فمهما بلغت قسوة الاحتلال وجرائمه، وجب على المقاومة أنْ تحافظ على نبلها وأخلاقها، وأنْ تميّز بوضوح بين المحتلّ والشّعب، وبين المقاتل والمدنيّ، فهذا التّمييز ليس مجرّد موقف أخلاقيّ، إنّما هو إستراتيجيّة حكيمة تحافظ على شرعيّة القضيّة في المحافل الدّوليّة وضمائر الشّعوب...

وثاني هذه الدّروس يتمثّل في الهويّة والقدسيّة من خلال الأولويّة التي وضعها صلاح الدين لاستعادة الهويّة الإسلاميّة للمدينة المقدّسة، فما إنْ تمّ تحرير القدس حتّى بادر إلى تطهير المسجد الأقصى المبارك وإعادته إلى وظيفته الدّينيّة والروحيّة، مع الحفاظ في الوقت نفسه على الأماكن المقدّسة الأخرى في المدينة....

ففي وقتنا الحالي ، فنحن أحوج ما نكون لهكذا نموذج من التّوازن الحكيم الذي يسعى لإعادة الهويّة الإسلاميّة للمدينة واحترام التنوّع الدّيني فيها، فيقوم بإدارة التنوّع في المجتمعات متعدّدة الأديان والثقافات، فيؤكّد أنّ الهويّة لا تعني الإقصاء، وأنّ القوّة لا تعني القهر، وأنّ التحرير يعني تحرير الجميع من الظّلم والاضطهاد....

وثالث الدّروس يظهر في القوّة النّاعمة التي اكتسبها صلاح الدين من خلال سلوكه النبيل الذي أصبح جزءاً من قوّته الإستراتيجيّة، وأمام هذاالنّبل فقد أصبح خصمه أوّل الشّهود على فروسيّته النّبيلة، وهذا التقدير من خصمه كان أثمن من أيّ انتصار عسكريّ، لكونه قد أكسب القضية بتلك الأخلاق شرعيّة معنويّة وأخلاقيّة عالميّة.

ففي عصرنا الحالي، تلعب وسائل الإعلام والرأي العام العالمي دوراً محورياًّ في أيّ صراع، وهنا يبرز هذا الدرس ليعطي أهميّة للصورة والإعلام، فهما طرفان في معركة موازية لا تقلّ أهميّة عن المعركة على الأرض، والانتصار فيها يتطلّب التزاماً صارماً بأرفع المعايير الأخلاقيّة، حتّى وإنْ كان الخصم لا يلتزم بها....

ومن ثمّ هناك مرحلة الاستلهام، وتتجلّى في كيفيّة إسقاط هذا النّموذج الصلاحيّ على ما نواجهه من تحدّيات في هذا العصر، وهذه المرحلة تظهر في فهم أنّ أيّ تحرير حقيقيّ يبدأ بإنهاء حالة التشرذم والانقسام الداخليّ، ففي السياق الفلسطينيّ، فإنّ هذا يحتّم علينا ضرورة تجاوز الانقسام السياسيّ والجغرافيّ بين غزة والضّفة الغربية، وخاصّة مع الاعتراف العالميّ بدولة فلسطين كدولة واحدة لا انقسام فيها، فهنا يجب بناء إستراتيجيّة وطنيّة موحّدة تضع المصلحة الوطنيّة العليا فوق كلّ اعتبار، فضلاً عن ضرورة السّعي نحو تحقيق الوحدة العربيّة والإسلاميّة وتوحيد الاستجابة الوطنيّة تجاه أيّ عدوان خارجيّ أو داخليّ...

كما ويظهر الاستلهام من خلال ضرورة التّحوّل من منطق الاعتماد على القوى الخارجيّة ومساعداتها المشروطة إلى منطق البناء الذّاتيّ، من خلال الاستثمار في التّعليم والبحث العلمي والتّطوير التكنولوجيّ، وبناء اقتصاد منتج ومتنوّع يعتمد على الموارد والقدرات الذاتيّة، وفي السّياق الفلسطينيّ، فإنّ هذا يعني تطوير ما يُسمّى باقتصاد المقاومة، وهو اقتصاد قادر على الصمود في وجه الحصار والعقوبات، ومتجذّر في القدرات المحليّة والإقليميّة....

ناهيك عن أنّ الاستلهام يظهر في أهميّة التّخطيط الإستراتيجيّ طويل المدى، فالتّحرير عمليّة معقّدة ومتدرّجة تحتاج إلى رؤية واضحة ومراحل محدّدة وأهداف قابلة للتحقيق، وهذا يتطلّب تطوير إستراتيجيّة شاملة تتضمن الأبعاد السياسية والاقتصادية والثقافية والإعلامية، وتأخذ في عين الاعتبار التطوّرات الإقليميّة والدوليّة، كما يتطلّب الصّبر الإستراتيجيّ وعدم الانجرار وراء ضغوط اللحظة أو إغراءات الحلول السريعة....

وختام الاستلهام يكمن في ضرورة الحفاظ على البعد الأخلاقيّ في النّضال، فمهما بلغت قسوة الاحتلال وجرائمه، وجب أنْ يبقى الهدف تحقيق العدالة لا الانتقام، واستعادة الحقوق لا إنكار حقوق الآخرين، وهذا المبدأ لا ينطلق من ضعف أو سذاجة، بل من إدراك عميق لطبيعة الصّراع الحديث ودور الرأي العام العالميّ فيه، فالقضية التي تحافظ على نبلها وأخلاقها تكسب تعاطف العالم وتعزّز شرعيتها، مثلما حدث اليوم بالاعتراف العالميّ بفلسطين كدولة لها شرعيّتها ووجودها، بينما القضية التي تنحدر إلى مستوى العنف الأعمى تفقد هذا التّعاطف وتضرّ بنفسها أكثر ممّا تضرّ بخصمها...

وهنا تبرز زاوية خطرة وجب الوعي بعمق في التّعامل معها وتناولها، تتمثّل في خطة ترامب للسلام، المكونة من عشرين بنداً، والتي تطرح نفسها كمبادرة لوقف الإبادة التي يمارسها الإسرائيليون على الشّعب الفلسطينيّ، إلاّ أنّ تشكيل مجلس السّلام المرافق للمهمّة يضعها في موقف محرج من وجهة نظر المتابعين والمراقبين، فالأعضاء المقترحون لهذا المجلس لا يتناسبون وطبيعة المهمة وأهدافها المعلنة، ممّا يثير تساؤلات حول جديّة المبادرة وحيادها..

وفي هذا السّياق، يتوجّب على الفلسطينيّين إعادة التفكير بشكل عميق في هذه الخطة، إذ قد تكون هناك أجندات خفيّة لا تخدم المصلحة الوطنية الفلسطينية، فالمتابعون للوضع الراهن تساورهم شكوك عديدة حول النوايا الحقيقية وراء هذه المبادرة، انطلاقاً من التجارب السابقة والمبدأ القائل: "المؤمن لا يُلدغ من جحر واحد مرتين"، فكثيرون لا يرون في هذه الخطة ما يحقّق المصالح الفلسطينيّة العادلة، ممّا يستدعي الحذر والحذر ثمّ الحذر..

وفي هذا الإطار، تقع على عاتق الدول العربية المحورية مسؤوليّة دعم أيّ قرار يتّخذه الشعب الفلسطينيّ بشأن مستقبله، ونأمل من هذه الدول أنْ تقف إلى جانب تطلّعات الشعب الفلسطيني وتدعم خياراته بما يراه مناسباً لقضيته العادلة وحقوقه المشروعة.

ختاماً،

لقد جاء نموذج "من حطّين إلى القدس" ليذكّرنا بحقيقة أساسيّة مفادها أنّ التحرير ليس معجزة خارقة للطبيعة، إنّما هو نتيجة حتميّة لتوفّر شروط محدّدة وتطبيق لمنهجيّة واضحة، واستلهام هذا النموذج اليوم لا يعني محاولة إعادة تمثيل التاريخ بالوسائل والأدوات ذاتها، إنّما يعني فهم الفلسفة الكامنة وراء ذلك النجاح التاريخي وتطبيقها بالوسائل المناسبة لعصرنا...

فأعظم ما يمكن أنْ نتعلّمه من ملحمة حطين والقدس هو أنّ التاريخ لا يكتبه الحالمون ولا اليائسون، بل يكتبه ذوو الرؤية الواضحة والعمل الدؤوب، وكلّ حلم يحلمونه ممكن التّحقيق بيقين الإيمان والصّبر على الطريق، وقوة العزيمة ونبل الخلق، فعندما تتوافر هذه العناصر في أيّ شعب من الشعوب، فإنّ النّصر يصبح مسألة وقت فحسب، وعندها ستضاء صفحة جديدة من صفحات التحرير، تليق بتحدّيات العصر وآماله، وتضيف فصلاً مجيداً جديداً إلى ملحمة الكرامة الإنسانيّة الخالدة....

غير أنّ طريق النّصر والتّحرير يتطلّب منا وعياً عميقاً ويقظة دائمة، فهناك مؤامرات تُحاك في الخفاء، ومخطّطات تُرسم وراء الستار لطمس الهوية، وأجندات توضع خطوطها العريضة لتزييف حقائق تاريخ بأكمله، لذا وجب علينا أن نفهم ما يُدبّر في الظلام، وأنْ نكشف الأقنعة الزائفة التي تُلبس للباطل ثوب الحقّ، فبالوعي نحمي قضيتنا، وباليقظة نحفظ مقدّساتنا، وبالإيمان والعمل نستعيد ما سُلب منّا.

فنحن من هنا نقف أمام يقين راسخ بأنّ تحرير القدس آتٍ لا محالة، فالتّاريخ شاهد على أنّ هذه المدينة المقدسّة قد مرّت بمحطّات تحرير عديدة، بدءاً من الفتح العمريّ الذي أرسى دعائم العدل والرحمة، مروراً بالنّصر الصلاحيّ الذي أعاد للقدس كرامتها وطهرها من دنس الاحتلال، وصولاً إلى آخر محطّات التّحرير قبل أنْ تقع تحت نير الاحتلال الصهيونيّ من جديد...

فكما سطّر التاريخ صفحات العزّة والتحرير، فإنّه سيسطّر - بإذن اللّه - فصلاً جديداً من فصول النصر والعودة، وندعو المولى عز وجل أنْ يعجّل بفرجها ويُكرم أمّتنا بتحريرها.

واللّه غالب على أمره، والقدس عائدة... وما النّصر إلاّ من عند اللّه.